أدب الفقهاء

- ١ -

روى العلامة ابن خلدون عن أبي القاسم بن رضوان كاتب العلامة السلطانية بالدولة المرينية قال : ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس أحمد بن شعيب (الجزنائي) كاتب السلطان أبي الحسن المريني ، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده ، فأنشدته مطلع قصيدة أبي الفضل ابن النحوي ، ولم أنسبها اليه ، وهو هذا :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي ؟

فقال لي على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله « ما الفرق ؟ » إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب .

وهذا صحيح فان لكلام العرب أساليب لا يحذقها إلا من مارسها أشد الممارسة وكان محفوظه من النظم والنثر كثيراً جداً ، فهو إذا أراد الإنفاق أنفق من سعة ، ولم يقع في ضائقة تلجئه الى القصور عما يريد التعبير عنه ، وهل الكلام إلاّ من الكلام ؟

ونتخذ الجزنائي [1] نفسه مثالاً لصدق هذا القول ، فقد كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر المحدثين فقط ، فما ظنك بما كان يحفظه من شعر الأقدمين ؟ ولذلك نبغ منه شاعر عظيم وناقد كبير قال فيه ابن خلدون : « وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين وكانت له الإمامة في نقد الشعر » .

---

(١) انظر ترجمته في الحلقة ١٦ من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب للكاتب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن الحفظ وحده لا يكفي ، بل لا بد من الملكة ، وهي الاستعداد النفسي الذي ينميه الحفظ وتصقله الممارسة .

والملكة غير الذوق الذي يتحدث عنه علماء البيان ويقولون أيضاً إن الحفظ لكلام العرب والممارسة لأساليبها في النظم والنثر مما يكونه ويربيه ، فان الملكة هي طاقة الإنتاج وتحتاج الى الذوق ليكون الإنتاج رفيعاً . والذوق معيار النقد فصاحبه يعرف وجوه الحسن والقبح في الكلام ولكنه لا يكون أديباً إلا اذا كان صاحب ملكة . وقد كان في العرب نقاد لهم بصر بجيد الشعر وبليغ النثر ولكنهم لا يستطيعون انتاج أثر ما في أي باب من أبواب القول . ومنهم الأصمعي الذي قيل له : لم لا تقول الشعر مع صحة روايتك له ومعرفتك بجيده ورديئه ؟ فقال : الذي أريده منه لا يأتيني ، والذي يأتيني لا أريده .

وفي زمننا هذا طه حسين مثلاً فانه على رسوخ قدمه في نقد الشعر لا ينظم منه شيئاً .

وهناك من يجمع بين الملكة والذوق فيكون أديباً وناقداً ، كاتباً وشاعراً كالعقاد رحمه الله من المعاصرين وكصاحبنا الجزنائي من المتقدمين .

والغريب فيه أنه كان صاحب ثقافة علمية واسعة الى ثقافته الأدبية المتينة . فقد كان بارعاً في العلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب ، وتهتك في الكيمياء القديمة حتى عرف بذلك ، ولم يمنعه هذا من أن يكون شاعراً فحلاً ، ولا جعل أدبه أدب فقهاء أو علماء بتعبير آخر ، مما يدل على أنه لا منافضة بين الفقه والأدب والعلم والشعر ، وأن القضية انما هي قضية تمكن من المادة الأدبية نظماً ونثراً الى ملكة قوية وذوق مهذب ، وإن كان صاحب ذلك إماماً في الفقه ورأساً في العلم . ويرحم الله الشافعي إذ يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونحن نرى اليوم علماء مختصين برعوا في الأدب وفي الشعر بالذات حتى غطى أدبهم على علمهم، منهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي والمهندس علي محمود طه، وكلاهما من أصحاب الدواوين المتعددة فلننظر.

ومن شعر الجزناني الذي ينم عن نفسه العالي هذه الأبيات التي يقولها في التشوق الى الحبيب.

يا موحشي والبعد دون لقائه أدعوك عن شحط وإن لم تسمع
بذنبك مني الشوق حتى أنني لأراك رأي العين لولا أدمعي
وأحن شوقاً للنسيم إذا سرى بحديثكم وأصيخ كالمستطلع
كان اللقاء فكان حظي ناظري وسطا الفراق فصار حظي مسمعي
فابعث خيالك تهده نار الحشا إن كان يجهل من مقامي موضعي

ونعود الى كلمة صاحبنا وحكمه على بيت ابن النحوي بأنه شعر فقيه من قوله: «ما الفرق» لأنها من عبارات الفقهاء. فهل مجرد استعمال عبارة من عبارات الفقهاء أو غيرهم من العلماء يخرج الشعر عن كونه شعر أديب؟

واذن فبماذا نحكم على قول شاعر العرب الأكبر أبي الطيب المتنبي:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وقد استعمل عبارة تخالف الناس ولفظ الخلف وجملة حتى لا اتفاق لهم وكلمة فقيل تلتها وقيل أخرى على سبيل التفصيل وكل ذلك من عبارات الفقهاء والنحويين وغيرهم من العلماء، وهذا عنده وعند غيره من الشعراء كثير لا يخفى على الجزناني ولا على من دونه معرفة وتحصيلا، بل ان علماء البديع يذكرون نوعاً من المحسنات يسمونه المذهب الكلامي وهو ما يحتج فيه على المطلوب بحجة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

تشبه حجج علماء الكلام . وثم أيضاً الاقتباس وهو الأخذ من مصطلحات العلماء على اختلاف اختصاصاتهم وقد وقع في كلام المتنبي نفسه كقوله مقتبساً من علم الفقه :

بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

فني تفرمي الأولى من اللحظ مهجتي بثانية (والمتلف الشيء غارمه)

واشتهر قول الشمس بن العفيف حتى بين المطربين ودخل في القطع الشعرية المستعملة في الموسيقى الأندلسية وهو :

يا ساكناً قلبي المعنى وليس فيه سواك ثان

لأي معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان

وفيه اقتباس قاعدة نحوية معروفة بألفاظ النحاة واصطلاحاتهم ، فهل ما يتواضع عليه أهل البيان ويقع في كلام المبرزين من أمراء الشعر ويتنغم به أصحاب الفن يعد من الأدب المدخول ويكون في نظر الناقد الأدبي ليس بذاك ؟! .

وجاء في قصيدة لأبي العتاهية هذا البيت في الاتعاظ بالموتى والقبور :

ولقد وقفت على القبور فما فرقت بين العبد والمولى

وهذه هي عبارة البيت الذي انتقده الجزنائي تقريباً ، ولا قائل بأن أبا العتاهية ليس بشاعر أو أن شعره شعر فقيه .

أما اذا نظرنا الى الأدب الحديث وخاصة هذا الشعر الذي يسمى بالشعر الحر ، فانا نجده قد كسر هذه الموازين ولم يعبأ بتقليد من هذه التقاليد الأدبية حتى انه يقع في تعابير نابية عن الذوق ويقتبس من اصطلاح التجارة والحمالة ومن اليهم بله اصطلاحات العلماء وذوي الاختصاص في مختلف فنون المعرفة .

ولعل الحكم الصائب في هذه المسألة هو أن المدار على وضع الكلمة أو المصطلح في الجملة أو الفقرة التي تتضمنها ، فإن كان ذلك مما لعب فيه الذوق الفني دوره

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأداه بعناية كان مقبولاً ومستحسناً ، والا بأن تقلقلت العبارة وضاقت باللفظة المقتبسة فان من حق الناقد أن يدين الأثر الأدبي الذي يقع في هذا المحظور ويحكم عليه حكماً مسقطاً . ونحن اذا اعتبرنا موقف الحيرة التي استولت على شاعرنا الفقيه حقاً وما اعتراه من الذهول عند رؤيته لأطلال منازل الأحبة وتشتت فكره بين ذكر العهود التي سلفت له في هذه المنازل وما آل اليه أمرها من الدروس والدثور ، نرى أنه عبّر عن شعوره بما فيه بلاغ ، وأدى ما يجول بخاطره في بيت شعري مؤثر ، بقطع النظر عما استعمل فيه من الألفاظ المعهودة عند الفقهاء أو غيرهم ، لأن المهم هو أنه صور مشاعره ونقلها الينا بما جعلنا نحس احساسه ولا زائد ، وليس هو بأولى من المتنبي وغيره من الأدباء الذين ليسوا بفقهاء ، بتجنب استعمال العبارات العلية والاقتباس من المصطلحات الفنية .

أبو الفضل ابن النحوي :

على أن شاعرنا أبا الفضل ابن النحوي يعد من الشخصيات المزدوجة الثقافة ، فهو مع رسوخ قدمه في الفقه له البراعة في الأدب والشعر ، وحسبك منه قصيدته المعروفة بالمنفرجة التي اشتهرت بين العلماء والأدباء على السواء حتى نسج على منوالها كثير من الشعراء فعارضوها وشطروها . وهي التي يقول في أولها :

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد آذن صبحك بالبلج
وظلام الليل له سرج ... حتى يأتي[1] أبو السرج
وسحاب الخير لها مطر ... فاذا جاء الإبان تجي

واشتهر من شعره أيضاً هذان البيتان :

أصبحت فيمن لهم علم بلا أدب ... ومن لهم أدب عار عن الدين
أصبحت فيهم غريب الشكل منفرداً ... كبيت حسان في ديوان سحنون

(١) وفي رواية : حتى يرثاه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والشطر الأخير هو مما جرى مجرى الأمثال ، وقد يستشهد به من لا يعرف معناه . وبيانه أنه ورّى بكتاب المدونة المعروف في الفقه المالكي وسماه ديوان سحنون لأن سحنون الفقية هو مؤلفه ، والمدونة على كبرها وكونها تقع في أربعة مجلدات ضخام ليس فيها شعر إلا بيت حسان بن ثابت شاعر النبي (ﷺ) الذي يقول فيه معرّضًا بقضيه بني النضير :

وهانَ على سراةِ بنى لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيرة مُستطيرُ

أدب الفقهاء باب واسع :

وأدب الفقهاء مادة خصبة للدراسة ، وباب واسع يتضمن فنوناً وأغراضاً مختلفة ، بعضها مما يقل نظيره في أدب غيرهم ، فهو يشتمل على شعر وجداني من الطبقة الرفيعة ، يعبر عن أعمق المشاعر الإنسانية ، وأرق العواطف القلبية . ومنه شعر فلسفي يتناول مطالب النفس العليا ، ويتحدث عن الروح وعالمها الفسيح ومشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما الى ذلك . أما الأخلاق والآداب ، شرعية وسياسية ، فأدب الفقهاء هو منبعها الذي لا ينضب ، ومنجمها الذي يحتوي على ثروة طائلة لا نفاد لها . ويمدح الفقهاء ويرثون كغيرهم من الأدباء . وربما هجوا ، ولكنهم لا يتخذون ذلك حرفة كما يفعل غالب الأدباء . على أن مدحهم لا يكون لطلب دنيا ونيل جائزة من صاحب ولاية أو سلطان . انهم كانوا لا يرغبون في القرب من الملوك ولا يتملقونهم الا من شذّ منهم ، ولذلك فان أكثر مدحهم للرسول (ﷺ) وأهل الفضل والكمال ، وتكتسي أمداحهم حلة خاصة من السمو الروحي لصدورها عن إيمان صادق بالممدوح وكمالاته النفسية التي لا تشبه أوصاف الممدوحين العاديين . ومن ثم فان كثيراً من أمداحهم يتفق بها ويكون لها من القبول ما ليس لأمداح فحول الشعراء . وحين تكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الأمداح في تمجيد الذات العلية والتغني بالحب الإلهي فانها تكتسب فوق ذلك صفة القداسة لدى جماعة المتصوفين .

وهناك مواضيع أخرى لأدب الفقهاء ، ونماذج هي أقرب ما تكون للشعر القصصي ، كبردة البوصيري وهمزيته ، فانها وإن كانت تعتمد المادة التاريخية في مضمونها ، لا تألو جهداً في استخدام الخيال وتجسيم الصور وإثارة العواطف بما يجعل شكلها قريباً جداً من هذا الشعر القصصي الذي كثيراً ما يُتحدث بخلو الأدب العربي منه . وعلى الأقل فان هذا اللون الطريف من أدب الفقهاء يكون باباً من الشعر لم يطرقه غيرهم من الأدباء . ويمكن أن نسميه شعر السِّيَر إن لم يندرج في شعر القصص .

وبعد ذلك تبقى تفاريق وأشتات من أدب الفقهاء كالحديث عن الحياة العلمية وما لها من جمال يفوق في نظرهم جمال هذه الأشياء المادية التي ينقطع اليها غيرهم من الأدباء ويفنون أعمارهم فيها بغير فائدة ، وكالخصوصات الأدبية التي تقع فيما بينهم فيتراشقون لأجلها السهام بطريقتهم الخاصة ، وكعرض الحقائق العلمية في صور أدبية ، والألغاز العلمية وغير ذلك مما يعسر تتبعه .

بين شعر الفقهاء ونثرهم :

وربما يلاحظ القارئ أننا أكثر ما نتحدث عن الشعر ، ومدلول الأدب أعم من أن يقتصر في الحديث عنه على الشعر دون إشارة الى النثر . والواقع أن الباعث على كتابة هذا البحث هو النقد الذي يوجه الى شعر الفقهاء خاصة دون نثرهم ، فان النقاد درجوا على التعبير بقولهم هذا شعر فقيه اذا وجدوا فيه مغمزاً من الناحية التي تناولها الجزنائي الذي بنينا بحثنا هذا على كلامه ، فالشعر إذن هو محط النظر من أدب الفقهاء . وأما النثر فان لهم فيه يداً طولى قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

تطغى على ما للأدباء في ذلك ، وما زالت كتابات الغزالي والطرطوشي وابن خلدون والراغب الأصبهاني وأمثالهم من النماذج العالية التي تُحتذى في النثر العربي ، وبديهي أن ليس كل الفقهاء ممن برعوا في النثر وكانت لهم فيه هذه المكانة المرموقة ؛ وإنما الفرق أن النقاد لم يجدوا مثل هذا التفوق للفقهاء في الشعر فلاحظوا عليهم ضعف الملكة الشعرية ، وهم قلما درسوا الآثار النثرية للفقهاء حتى يحكموا بتفوقها وإن سكتوا عليها لأنهم لم يجدوا فيها مطعناً .

ونرى أن الوقت قد حان لدراسة النثر العربي من جديد ؛ وتقديم نماذجه الحية (التي طالما غفل عنها مؤرخو الآداب والنقاد) ، من آثار العلماء الذين ذكرناهم وغيرهم من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين والفقهاء والمتكلمين والصوفية ، وعدم الاقتصار على آثار الكتاب بالمعنى الضيق كابن العميد والحريري والقاضي الفاضل ولسان الدين فان تقدم المعرفة وتطور الأدب قد برهنا على أن نثر أولئك الأعلام هو المساير للطبيعة والموافق للذوق السليم .

ونحن اليوم على غراره نطبع ، لا على ما كان متكلفاً من كتابات هؤلاء الأدباء المتنوقين .

أدب مستقل :

ولا ينتمي هذا الأدب لطبقة من الطبقات ولا لعصر من العصور ، لأن مؤرخي الأدب أهملوه فبقي حراً لا يتقيد بحكم من أحكامهم في ذلك ، ولهذا يصح أن نرويه على ترتيب السنين أو على الموضوعات .

والحق أننا إذا نظرنا اليه من زاوية التاريخ وجدنا أنه يرجع الى عصر السليقة وطبقة من يُحتج بهم من شعراء العربية ، فان ميلاده كان مقروناً مع ميلاد الإسلام ، ونحن اذا استثنينا شعراء الصحابة المعروفين الذين غلبت عليهم صفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشاعرية كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وأمثالهما ، كان من بقي منهم ممن قال شعراً إما أن يكون غير فقيه ، فهو معدود في المقلين وأصحاب الأبيات من الشعراء ، وإما أن يكون فقيهاً فهو من الطلائع الأولى لهذا الصنف من الأدباء وهم عدد كثير ، ناهيك بأن منهم أبا بكر وعمر وعليا (ض) .

قال سعيد بن المسيب كما في العقد الفريد : كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلي أشعر الثلاثة . وأما الأنصار فكادوا يكونون كلهم شعراء . جاء في ترجمة أبي الدرداء (ض) انه قيل له ليس رجل من الأنصار إلا وله شعر فلم لم تقل أنت شعراً قال وأنا قد قلت :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وأبو الدرداء من فقهاء الصحابة (ض) بل هو أحد الستة الذين انتهى اليهم علم النبي (ﷺ) .

(يتبع) عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net